سومر

الجزء الاول والثاني - المجلد الخامس والاربعون

١٩٨٧ - ١٩٨٨

الثرثار وحوضه

فالتر اندريه - ترجمة عبد الرزاق كامل ذنون

يرجع اصل الاسم الغريب[1] لهذا الوادي الكبير الواقع في الجزيرة جنوب سلسلة جبال سنجار الى اقدم الازمنة. فالآشوريون كانوا يطلقون عليه هذه التسمية فمثلاً ذكره ثوكولتي نينورتا الثاني[2] في كتابات الابنية التي شيدت في عصره عندما تحدث عن غزواته في الجزيرة. وقد حكم هذا الملك من ٨٨٩ لغاية ٨٨٤ ق. م. أما في الوقت الحاضر فسكان المنطقة لا يستطيعون توضيح الاسم بسبب ايغاله في القدم. ويلفظ الاسم في اغلب الاحيان (ثرثار) وكذلك (ثلثار). وقد اجرينا اعمال المسح لمجرى الثرثار لمسافة ١٢ كم تقريباً على مقربة من الحضر اثناء تنقلاتنا. أما اعالي المجرى والمنبع فمجهولة. ومن المحتمل أن الوادي يغذى بالجداول التي تنبع من الجزء الشرقي لجبال سنجار، خاصة الجدولين عين الغزال ووردى (Wordi) وإن الجدول عين الغزال يرفد الوادي بالماء بصورة مستمرة. ومن الممكن ايضاً وجود ينابيع اخرى الى الجنوب من ذلك تصب في الوادي. وفيما يخص ارتفاع نسبة الملوحة في ماء الثرثار فيعزى ذلك الى أن احد روافده يجري في أراض ملحية واسعة. فاذا نضب هذا الرافد يصبح طعم الماء اقل ملوحة من ذي قبل. في الجهة السفلية لمدينة الحضر أمكن معرفة جزء من مجرى الثرثار من خلال رحلات (Aiasworth) و (Rass)، في حين نجهل المجرى عند النهاية الجنوبية. ويغذى الثرثار في مجراه السفلي هذا من جهة اليسار ببعض الروافد القادمة من وادي سيفا (Sefa) في موسم سقوط الامطار وهو الوادي الذي ذكر سابقاً والذي يصرف مياه المنحدرات الغربية لسلسلة مكحول. والى حد معرفتي لم يتتبع احد من الاوربيين الثرثار الى نهايته. وحسب اقوال السكان البدو الذين اعتادوا التنقل صيفاً في الوادي يصب الثرثار في بحيرة ملحية كبيرة جداً في منطقة الرمادي على نهر الفرات حيث يستخرج الملح من هذه البحيرة. وبالتأكيد لا يصب الثرثار في مستنقع عقرقوف المعروفة قديماً باسم دور ـ كوريكالزو. إن البحيرة عبارة عن حوض لواد واسع ومقفل ترفده مياه ذات نسبة عالية من الملوحة آتية من الثرثار وتتبخر تدريجياً في موسم الحر. وهناك احواض اخرى من هذا النوع تقع الى الغرب من الحضر باتجاه الخابور، اضافة الى موضعين صغيرين لاستخراج الملح يقعان بين الحضر ونهر دجلة، احدهما جنوب غرب مدينة آشور والآخر شمال غرب آشور. وعلى نطاق محدود يؤجر البدو هذه الاماكن لمن يحسن استغلالها ومن هنا ترسل كميات كبيرة من الملح الى منطقة كردستان شرق نهر دجلة حيث لا تتوفر هناك.

شكل (١): وادي الثرثار شرق الحضر.

(١) هذه ترجمة للصفحات ٨ ـ ١٤ من كتاب
Hatra II Teil: Einzelbeschreibung Der Ruinen Von: Walter Andrae. Leipzig, 1912.

2) **Scheil, Les annales de Tukulti-Ninip II.**

إن الثرثار في مناطقه القريبة من الحضر هو واد عظيم يتراوح ارتفاع حافاته بين ٥ الى ٢٠ م بينما تتسع سهول الوادي لمسافة تتراوح بين ١٠٠ الى ٤٠٠ م (قارن الشكل رقم ١). ويضيق الوادي في بعض الاماكن ليشكل ممرات ضيقة: وينساب المجرى في الوادي متعرجاً بعمق ٣ أمتار ويمتلىء بالمياه عند سقوط الامطار. وبسبب عرض المجرى الذي لا يقل غالباً عن ٧ أمتار ولكون حافاته منحدرة بشكل قائم فإنه لا يمكن اجتياز المجرى الا بعد انخفاض منسوب المياه. ولفترة مؤقتة تفيض سهول الوادي ايضاً عند هطول امطار غزيرة. وفي بعض الاماكن استغلت هذه السهول بالزارعة، لكن سرعان ما اجبر البدو والزراع على ترك تلك المناطق. وينمو نبات الطرفاء على طول المجرى. أما في فصل الصيف فهناك مراعٍ ايضاً في سهول الوادي وهذا يتيح للرعاة التنقل مع ماشيتهم على امتداد الوادي. ويتحول الثرثار قرب مدينة الحضر على شكل قوس يتجه شرقاً خلافاً لاتجاهه الرئيسي من الشمال الى الجنوب (قارن الشكل رقم ٣). وبالنسبة لموقع المدينة يحتاج المرء الى (٢٠) دقيقة للوصول الى الوادي من جهة الشمال و (٤٥) دقيقة من جهة الشرق. وهذه هي اتجاهات الشارعين الرئيسيين المتجهين الى منطقة نهر دجلة حيث يؤدي الشارع الشمالي الى منطقة مدينة الموصل ويؤدي الشارع الشرقي الى مدينة آشور. وتوجد عيون لمياه عذبة بالقرب من مناطق عبور هذه الطرق على الثرثار. ولابد أن هذه العيون ليست نادرة الوجود في حافات الوادي شمال وجنوب مدينة الحضر، وهي تزيد من أهمية الوادي بالنسبة للبدو الرحل. وتقع عين الكهف عند المعبر الشرقي (انظر الشكل رقم ٢) وتنبع هذه العين من حوض يكون من صخور جبسية يبلغ ارتفاعه حوالي ٣ أمتار وكذلك عرضه، ويقع

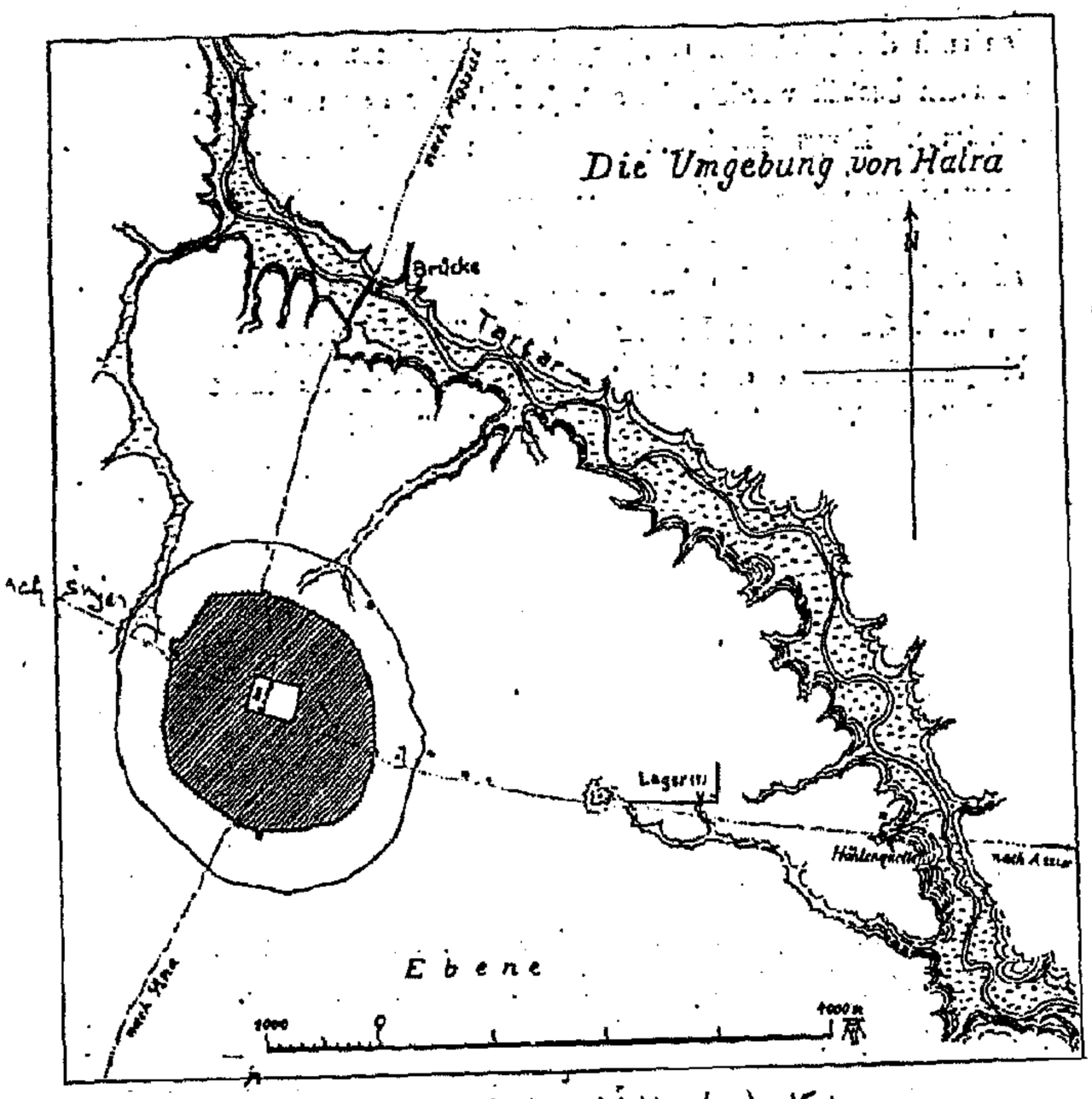

شكل (٣): المناطق المحيطة بمدينة الحضر.

هذا الحنوض امام نفق موجود في نهاية واد جانبي صغير على الجهة اليمنى من المعبر. إن طعم ماء العين مالح بعض الشيء هذا وشاهدنا ايضاً عيناً اصغر حجماً الى الشمال من هذا المكان واخرى غزيرة المياه شمال مدينة الحضر.

شكل (٢): عين الكهف.

إن الشرح المسهب لهذه الاوضاع كان بسبب المسألة المتعلقة بتجهيز الماء لمدينة الحضر. إن المرء يدرك بسهولة أن تجهيز الماء من الثرثار لم يكن نجاحه ممكناً حتى لو افترضنا وجود اوضاع (أو عوامل) ملائمة حين ذاك اكثر مما هي عليه اليوم وذلك للبعد الشاسع للوادي عن المدينة والجودة القليلة للماء وانخفاض منسوب المجرى في موسم الجفاف رغم وجود العيون حيث لا تستطيع أن ترفده بالمياه الكافية. فلابد اذاً أن تجهيز الماء بصورة رئيسية كان يتم داخل المدينة نفسها. ولا مجال للشك في هذه المسألة اذا ما شاهدنا العدد الهائل للآبار، فهناك بئر لكل منزل مهما كان صغيراً، ولكل شارع وكل ساحة اضافة الى برك كبيرة مكشوفة، مما يدل على وجود عرق ماء واحد أو أكثر يجري تحت المدينة على عمق قليل نسبياً، وقسم منه يجري في الطبقات الصخرية اللائمة لجودة الماء. ومن المحتمل أن سبب الاختلاف في جودة الماء يعزى الى جريان العروق في طبقات كلسية تارة وفي طبقات جبسية تارة اخرى. وهناك بركة لا

تزال تحوي ماء مالحاً تقع جنوب الحضر. وفي الاراضي السهلة من المدينة يمتد مستوى الماء على عمق حوالي ٨ أمتار. أما في الاجزاء الاكثر ارتفاعاً فتكون الآبار على اعماق اكبر في حين أن هناك ايضاً آبار يظهر فيها الماء على عمق اقل بحدود ٧ أمتار فقط. هذا وإن معظم الآبار مطمورة - حالياً. وقد أشرنا في خريطة المدينة الى خمس منها لازالت تحوي ماء.

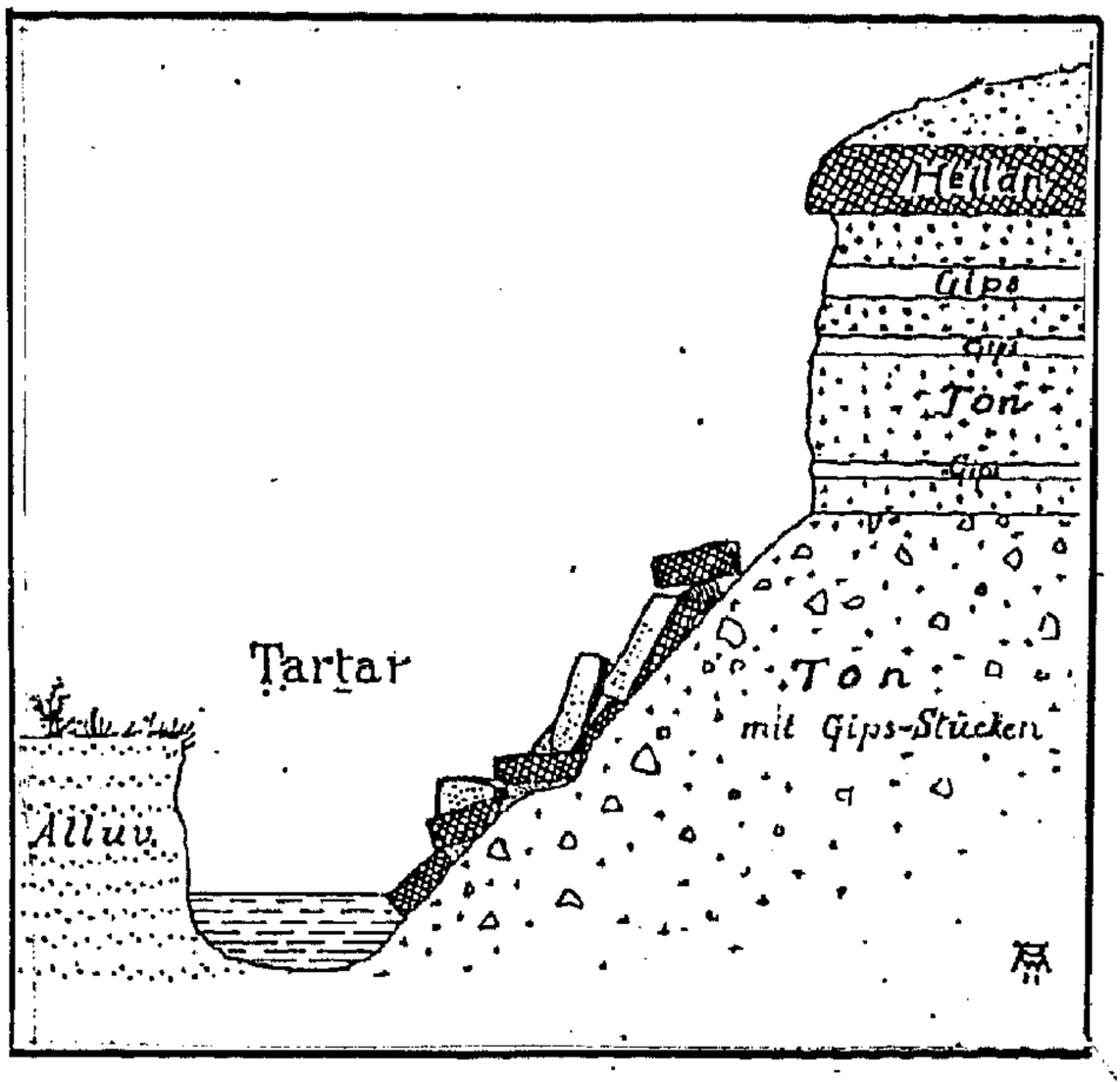

شكل (٤) : مقطع لطبقات الصخور في وادي الثرثار

إن الثرثار سيحل مسألة اخرى على ما يبدو وهي تجهيز المدينة باحجار البناء. ويتعلق هذا الموضوع بمصدر احجار الكلس المهندمة التي كان لها دور كبير في الابنية الضخمة للقصر والمدافن والاسوار الدفاعيه للمدينة، كما صنعت منها التماثيل ايضاً. إن حجر الكلس لا يتوفر بكثرة في المناطق التي تحيط بالمدينة، في حين أن حجر الجبس يشكل اغلب الحجر الخام المتوفر الآن. وفي شمال المدينة تظهر حافات الوادي في مواضع متعددة على هيئة تكوين مشابه تقريباً للرسم التخطيطي الموجود بجانب الشرح (شكل رقم ٤) فهناك طبقات مختلفة السمك، يتكون قسم منها من طين نقي من نوع الطفل الجيري. والقسم الآخر مخلوط بحجارة جبسية، اضافة الى طبقات من حجر الجبس. وفوق هذه الطبقات تستقر - في الاعلى تقريباً - طبقة سمكها ٧٠ - ٨٠ سم ومؤلفة من حجر اصفر اللون هو حجر الكلس الذي نعرفه في مدينة آشور باسم (الحلان). وهو يشبه الحجر المستخدم في الحضر لكونه حبيبياً وكثير الثقوب. وتتغطى طبقة حجر الكلس هذه بطبقة اخرى قليلة الارتفاع تكونت بفعل عوامل التعرية. وتتكسر على حافات الوادي الطبقة الكلسية العلوية بصورة تدريجية مكونة كتلاً من الاحجار المنتظمة الكبيرة الحجم. ويرجع سبب ذلك الى كون الطبقة الكلسية ذات مقاومة قليلة لعوامل التعرية حيث تعمل الامطار على تعريتها بشكل واضح. ولم نلاحظ أية احجار صنعت بشكل منهدم في حين أن القطع الحجرية المبعثرة على منحدرات الوادي كانت صالحة للبناء بدون الحاجة الى نحت اضافي، باستثناء طبعاً استعمالها في البناء مع احجار اخرى مهندمة. ومع ذلك - كما سنذكر لاحقاً - توجد امثلة كافية لابنية استفادت من هذه الخاصية الملائمة للحجر فهي مشيدة كلياً باحجار كبيرة تكاد لم تمسها يد الصانع. ومن المحتمل أن تغييراً ملحوظاً للشكل الطبيعي للوادي نشأ بسبب رفع طبقة حجر الكلس التي تحمي الطبقات الضعيفة الكائنة تحتها من عوامل التعرية. وفي الوقت الحاضر لم يعد بالامكان التعرف على أي أثر يشير الى اعمال المقالع الحجرية يوم ذاك*. وربما أن سبب ذلك هو الانبساط الشديد للطبقة التي كانت تقلع منها احجار البناء. فالطبقة المرفوعة هذه كانت تعوض تدريجياً بطبقات تحملها الرياح الى أن عاد كل شيء كما كان عليه من قبل.

وبالامكان ايضاً البحث عن مقالع الحجارة بالقرب من المدينة وعلى وجه الخصوص في موضعين يقع احدهما امام الجهة الشرقية للمدينة بين البوابة الشرقية والجزء الشمالي الشرقي البارز من السور، في حين يقع الموضع الثاني امام الجهة الغربية للحضر جنوب البوابة الغربية. والموضعان عبارة عن مناطق تكثر فيها الروابي المنبسطة وتوحي أنها جزء من ضواحي المدينة لكن هذا مجرد احتمال قليل للشك وذلك لعدم وجود علاقة واضحة بين الموضعين واحدى بوابات المدينة نظراً لوقوعها بعيداً عن تلك البوابات كما أن هذه المواضع لم تستكشف بعد بشكل تفصيلي.

واذا نظرنا الى الموضعين على أنها مقالع للاحجار فإن بالامكان اعتبار الروابي اكواماً من مخلفات تلك المقالع. كما ويمر المرء في الطريق الشرقي المتجه نحو الثرثار بمواضع اخرى مشابهة على هيئة روابٍ تبدو غير منسجمة مع التكوين الطبيعي للمناطق التي تحيط بها، وربما تشكل هي الاخرى اكواماً من المخلفات الحجرية للمقالع.

في مدينة الحضر كمدينة مأهولة بالسكان يومذاك كان غير ممكن ترك مسألة عبور مجرى الثرثار مرهونة بما تشتهيه قوى

* اكتشف الآثاريون بعض مقالع الحجر على بعد ٦ كم تقريبا من المدينة واستخدمت احجارها في صيانة الابنية. تعليق من الدكتور واثق الصالحي.

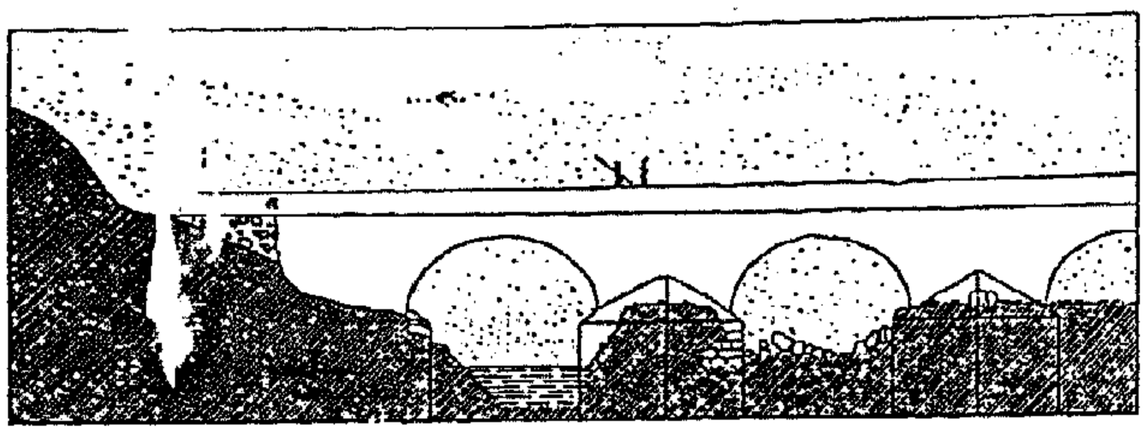

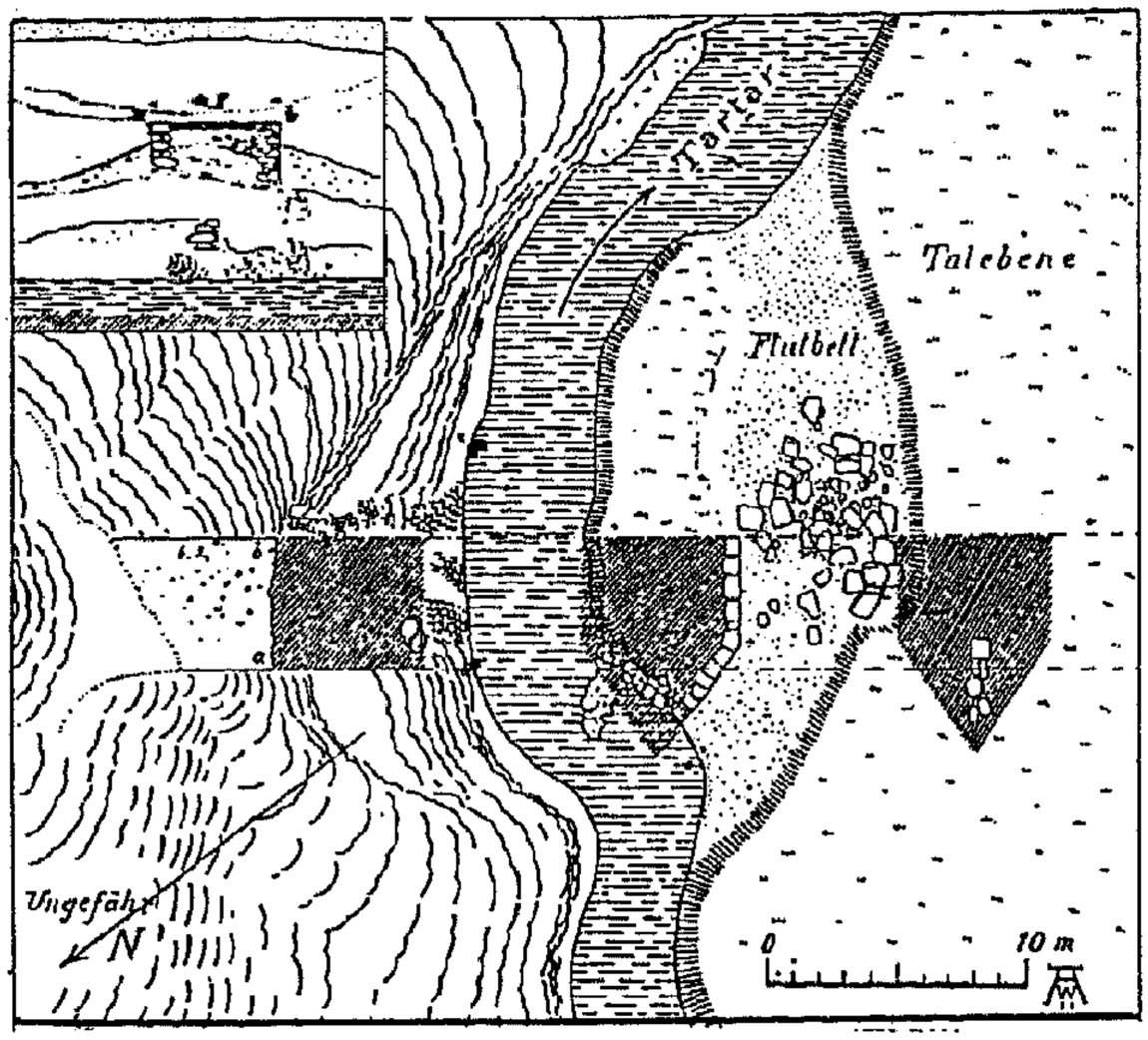

شكل (٥) : جسر الثرثار : خارطة الموقع مع اعادة تكميل

الطبيعة . إن بمجرد ارتفاع منسوب الماء الى اكثر من ١,٥ م يصبح من الصعب جداً اجتياز المجرى حتى في المناطق الصالحة للعبور حيث يتدفق الماء بسرعة ويحمل معه كمية كبيرة من الطمى . لهذا فإن وجود معبر كان امراً ضرورياً جداً ، بل وربما معبران . وقد أمكننا مسح الجسر المتصل بالشارع الشمالي . ومن المحتمل أن رحالة سابق* كان قد شاهد هذا الجسر لكن احداً لم يصفه او يقيسه . وفي مطلع العام ١٩١١ ، اكتشف حسن رضا بك (Hassan Riza Boy) الجسر ثانية وبذلك وفر علينا جهداً كبيراً . ويقع الجسر شمال النقطة الشرقية لسور مدينة الحضر تقريباً وعلى بعد حوالي ٢,٥ كم من الجهة الشرقية للمدينة . إن الوادي في هذا الموضع لا يلفت الانتباه بشكل خاص ، فهنا ينساب الثرثار في اتجاه جنوبي شرقي ويكون عرض الوادي اكثر من ٣٠٠ م يتراوح ارتفاع حافات الوادي بين ١٠ ــ ١٥ م وهي مشقوقة على هيئة اخاديد بفعل الوديان الجانبية التي تصب في كلا الجانبين . ويجري الثرثار في الوقت الحاضر على امتداد الجهة اليسرى من الجانب الشمالي الشرقي للوادي . لكن لا ينبغي اعتبار هدا المجرى هو ما كان عليه دائماً في جميع الازمنة . وعلى مقربة من الجهة الجنوبية الشرقية للجسر يتفرع واد جانبي ذو حافات قائمة . اما حافة الوادي عند رأس الجسر الشمالي الشرقي والواقع في الجهة اليسرى فقائمة الانحدار نوعاً ما . في حين من الممكن تسلقها . ويبعد رأس الجسر مسافة ٣ امتار تقريباً عن الحافة العليا للمنحدر . وتوضح خريطة الموقع المجاورة لهذا الشرح (شكل رقم ٥) البقايا التي لا تزال موجودة من الجسر وهي جزء صغير من رأس الجسر واجزاء من القوس الاول المنهار والجانب الايمن من الدعامة الاولى للجسر وانقاض من القوس الثانية وكذلك من الدعامة الثانية للجسر اضافة الى بعض الكتل الحجرية من الدعامة الثانية والتي ربما لا تزال في موضعها الاصلي .

إن رأس الجسر عبارة عن سد مكون من طبقات مسطومة بين جدارين ساندين يقومان بدون أسس على السطح المائل للمنحدر ، ولذلك فإن هنالك فروقاً في طول وارتفاع كل من الجدارين الساندين مع أن الطريق المؤدي الى الجسر كان طبيعياً من ناحية المحور . والجداران مشيدان باحجار غير منحوتة مع ملاط من الجبس . ولا تزال تبدو للعيان بشكل واضح الطبقات المسطومة بين الجدارين الساندين وكذلك الاحجار الكبيرة وكذلك التي استعملت في دعم السد . (انظر الشكل ٦) . اما حواجز الجسر وكذلك الدرابزينات فلم تعد لها بقايا تذكر ، لكن يجب اعادة تنظيم رسمها في مخطط الجسر لأن ارتفاع ممشى الجسر من سطح الماء يتراوح بين ٥ ــ ٦ أمتار . وهناك منحدر بين موضع انهيار رأس الجسر والمجرى الحالي للثرثار وهو مغطى في بعض اجزائه الواقعة داخل خطي البناء (للجسر) ببقايا بنائية كما توجد بقايا مماثلة خارج خط البناء الجنوبي الشرقي وهذه البقايا

شكل (٦) : جسر الثرثار من الغرب .

* هكذا عند اينزوورث : رحلات جـ ٢ . ص ١٧٥
و (نقلاً عن Ritter XI, 481) JRGS XI, P. 19. 20.

مبنية بطريقة سطم احجار صغيرة في محلول الجص. وحسب اعتقادي لا يزال بالامكان التعرف على مجموعة من الاحجار المبنية على شكل قوس داخل هذه البقايا وعلى وجه الخصوص في القطع الحجرية التي استقرت في الاسفل، وأن ننظر اليها باعتبارها القوس الاولى المنهارة للجسر والذي هنالك بقايا منها – على ما يبدو – تمثل قاعدته (كتفه) المؤلفة من بعض الاحجار الكبيرة على هيئة مداميك مرصوفة على اليابسة ويبلغ ارتفاعها بقدر نصف ارتفاع المنحدر (شكل رقم ٦).

إن بقايا الدعامه النهرية الاولى للجسر لا تزال موجودة بحالة جيدة نسبياً. ومن بقايا جانبها الايمن أمكن مشاهدة خمسة مداميك من الاحجار المنجورة. كما لا تزال توجد الزاوية السفلى الكائنة في خط البناء الجنوبي الشرقي لرأس الجسر. لكن الحال لا ينطبق على الجزء العلوي المدبب لرأس الدعامة الذي يجب اعادة تنظيمه في مخطط تكميل الجسر. اما الجانب الايسر للدعامة فقد جرفته المياه. وحالياً يجرى الماء على امتداد هذا الجانب.

واذا افترضنا أن الاقواس كانت اكثر سعة وإن الدعامات اقل سمكاً مما تبدو في الشكل رقم (٧) فإن قياساتها ستبقى حتماً متشابهة. إن الدعامات كانت ضخمة. اما الاقواس فصغيرة، وهي حالة تتناسب مع كميات المياه القليلة التي كانت تنساب تحت الجسر حتى عند سقوط امطار غزيرة. وتقف الدعامة في الوقت الحاضر على جزيرة صغيرة يقع على يمينها حوض لمجرى يكون جافاً في معظم اوقات السنة. لذلك فإنها ما تزال تقسم المياه الى يومنا هذا. وفي اجزاء الدعامة التي سقطت منها احجار التغليف المهندمة فإن الماء عمل على تآكل البناء اللب ايضاً الذي ربما كان مشيداً من احجار صغيرة وملاط باسلوب السطم. إن عرض السطح الجانبي المستقيم للدعامة اقل من عرض الطريق في رأس الجسر. ومن ذلك يجب أن نستنتج أن القطر الداخلي للاقواس كان اكبر بعض الشيء من المسافة الداخلية بين الدعامات كما يظهر ذلك في (شكل رقم ٥).. وبخلاف هذا الاستنتاج تنشأ مشكلة من جراء التداخل بين الوجه الداخلي للاقواس والجزء العلوي المدبب للدعامات.

إن الدعامة الثانية تتداخل بعض الشيء حالياً مع الجرف الايمن. وتتكون بقاياها الاثرية من عدد ضيئل من الاحجار الكبيرة المهندمة وغير المهندمة وهي صالحة للبناء وفي موضعها الاصلي على ما يظهر. لكن هذا ليس بالامر القطعي ففي حوض المجرى بين الدعامتين توجد احجار كبيرة منجورة وغير منجورة وعددها يكفي لاعادة تنظيم رسم الدعامة الثانية. كذلك الحال بالنسبة للقوس الثانية فبقاياه التي تتكون من حجارة صغيرة مبعثرة بين الاحجار الكبيرة تكفي للدلالة عليه. وهو كالقوس الاول منهار باتجاه المجرى. هذا ولا توجد بقايا اخرى من الجسر في الارض المنبسطة التي مر ذكرها والتي تمتد من هذا المكان الى حافة الوادي اليمنى. لكن في نفس الوقت يمكن الافتراض بشيء من التأكيد أن للجسر قناطر اخرى وإنه كان يمتد عبر الوادي لأن من الممكن أن يمتليء الوادي كله بالمياه عند ارتفاع مناسيبها اثناء الفيضان. وبعكس هذا الافتراض فإن الاستفادة التامة من الجسر كانت ستصبح مسألة وهمية لفترة من الوقت. هذا ولا يمكن الوصول الى يقين تام بهذا الخصوص الا من خلال البحث والتنقيب.

عند اعادة تنظيم مخطط الجسر يتقيد المرء بخط المشى والدعامات الموجودة. ووفقاً لذلك فإن اقواس الجسر لم تكن على شكل نصف دائرة بل اقل تحدباً من ذلك على هيئة عقد خطه الخارجي مضغوط بعض الشيء وربما كان تحدب القوس يشبه تحدب السلة، ويظهر هذا النوع من الاقواس في واجهة المعبد ايضاً.

إن تحديد تاريخ الجسر يشوبه الكثير من الشك لعدم كفاية جميع اشكال المخلفات الاثرية المكتشفة وانا اعتقد أن الجسر لا يعود الى فترة حكم الزنكيين (القرن الثاني عشر للميلاد) عندما كانت الحضر محطة للقوافل وارغب في اعتبار الجسر انجازاً يعود الى فترة الاحتلال الفرثي خاصة وإن اسلوب انشاء الجسر لا يتعارض مع هذا الافتراض.

ولا نعرف شيئاً عن المعبر الشرقي لوادي الثرثار الذي لابد أنه كان يسهل حركة المرور للشارع المتجه الى مدينة آشور حيث لم نشاهد هناك سوى صفاً من الاحجار غير واضح المعالم عبر الوادي العريض. وتقع هذه الاحجار شمال عين الكهف بجوار عين اخرى صغيرة. وليس أكيداً ما اذا كانت هذه الاحجار تمثل بقايا من جسر منهار.